الحصار، الجدار، الأسوار، الانعزال

منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية في النصف الأول من القرن الماضي وأوروبا الغربية شعوباً وحكومات مختلفة ومنظمات مدنية وحقوقية وساسة ومفكرين، يعملون جاهدين على إزالة العوائق والحواجز والجدران والحدود التي تفصل بين الدول الأوروبية والتي تشكل عائقاً أمام وحدتها وتكاملها السياسي والاقتصادي والثقافي، رغم الفوارق الكبيرة التي بينها: كالفوارق القومية والعرقية والأديان والمذاهب المتعددة والمختلفة التي تسود مجتمعاتها وشعوبها، والتي كانت تعيق التكامل الاقتصادي والسياسي والعلمي فيما بينها. وكان في مقدمة هذه الإجراءات رفع الحواجز الجمركية والتجارية، وهدم جدار برلين وتوحيد ألمانيا، وإزالة الحواجز الحدودية وصولاً إلى منظومة الاتحاد والبرلمان الأوروبي التي هي عليه اليوم.

كانت أمريكا السباقة في توحيد الولايات الأمريكية قبل ما يقرب من قرنين من الزمان على إنشاء الوحدة الأوروبية. كما تبنّت الإدارات الأمريكية المتعاقبة، لا سيما بعد انتهاء حقبة الحرب الباردة، الدعوة لنظريات العولمة وعالم القطب الواحد الجديد، والانفتاح الذي يدعو إلى إزالة الحواجز الجمركية، بما سمي (منظمة التجارة الحرة) والتبادل التجاري والثقافي والفضاء المفتوح.

قد تبدو المبادئ والأهداف المعلنة لهذا الانفتاح حضارية وثورية في ظاهرها، إلا أنها على أرض الواقع والممارسة ثقافة إمبريالية حملت معها غزواً ثقافياً وهيمنة اقتصادية وعسكرية للقطب الواحد، الذي تبنى أهدافاً ونوايا عدوانية وأيديولوجية استعلائية وتمييز عرقي وفوقية على الشعوب الأخرى، تقوده رأسمالية متوحشة ذات معايير مزدوجة لا أخلاقية وغير إنسانية، حملت معها غطرسة وعربدة عسكرية وطغياناً لنظام جائر وعنصري (القطب الواحد)، الذي أصبح نظاماً تبشيرياً لديمقراطية مدعاة مشبوهة وإرهابية تحمل في باطنها وظاهرها معايير مزدوجة مكشوفة. هذا ما دفع بالعديد من الكيانات النامية والصغيرة للالتحاق أو الانضمام إلى الأحلاف العسكرية والتجمعات الإقليمية وبروز سياسة المحاور الدولية، لتتحول بعض هذه الدول والحكومات تلقائياً إلى

تابع أو حليف في ظل نظام دولي جائر يسيطر على إرادة وقرارات المنظمات الدولية، الأمر الذي جعل منها سلطة تابعة تنحصر قراراتها في خدمة السياسات الإمبريالية والأحادية. وقام بتحويلها مؤخراً إلى سلطات قمعية استبدادية وتبريرية تفرض نيابة عن الدول الكبرى على الشعوب المستضعفة عقوبات جماعية وحصارات اقتصادية وغطاءً شرعياً لإبادة جماعية وجرائم وحشية وعدوان على السيادة الوطنية والكرامة الإنسانية.

هذه التحالفات، وما سمي (قوات التحالف شكلاً) في العراق وأفغانستان، سوف تتساقط تباعاً تحت تأثير الظروف القتالية وانهيار سلطات الطغيان والاستكبار التي أوجدتها وأفرزت تحالفاً معها، نتيجةً لوعي الشعوب ولمقاومتها وضرباتها للغزاة المحتلين والمتحالفين، كما حدث ويحدث الآن في انفراط التحالف الهش الذي يحتل العراق وأفغانستان.

المقاومة الباسلة للقوى الاستكبارية عجلت في تفاقم الأزمة المالية العالمية للنظام الرأسمالي الإمبريالي الربوي، والذي يحمل في تكوينه أسباب انهياره وسقوطه الذاتية، وهو يستجدي الآن تابعيه وحلفاءه لنجدته مالياً في محاولة لإبقائه على قيد الحياة، وهو يواجه النزع الأخير، كنتيجة طبيعية لتوحشه وممارساته العدوانية وجرائمه المرتكبة بحق الشعوب الأخرى وعنصريته المفرطة، وتلموديته المقيتة.

النظام الاستعماري الربوي التلمودي الذي يستتر بالديمقراطية والعلمانية وفصل الدين عن الدولة، ويدّعي نظام دولة المؤسسات، هو نظام الحرباء التي تغيّر لون جلدها بحسب حاجتها ومواكبتها لطبيعة الأجواء التي تتواجد وتعيش فيها، وذلك عندما يتبنى العلمانية ويشكل تحالفاً عسكرياً لمحاربة الأصولية، ويحارب من ينادي ويدعو إلى إسلامية الدولة في أفغانستان، ويشن حروبه وعدوانه على شعبها وقادتها من حركة طالبان الأفغانية، بغض النظر عن رأينا فيها؛ هو الحرباء الأمريكية نفسها التي تقود التحالف الغربي الذي ينادي من خلال مؤتمر أنابوليس الصهيوني وما بعده بيهودية الدولة وعنصريتها الصهيونية التوراتية في فلسطين؛ هذه الأيديولوجية التي يستنكرها ويرفضها ويحاربها في أفغانستان وإيران وغيرها من الدول الإسلامية!

ويدعم الغرب إزالة الحواجز وهدم الأسوار والجدران حينما يتعلق الأمر بقوة الغرب وسيطرته وهيمنته ووحدته، لكنه يدعم أيضاً إقامة الحواجز والأسوار والجدران الفاصلة والحدود المصطنعة والتقسيم ونظام الفيدراليات الطائفية والعرقية حينما يتعلق الأمر بالعرب والمسلمين، كما هو الحال في فلسطين والعراق!

موضوعنا الرئيس في هذا الفصل هو (الجدار والأسوار والانعزال). والهدف منه تسليط الضوء على الممارسات الغربية الصهيوأمريكية المدعومة بنظم التسلط الاستعمارية لبناء جدار الفصل العنصري وتقطيع أوصال الضفة الغربية والقدس والأراضي العربية المحتلة، وإقامة الحواجز وفرض الحصار والعقوبات الجماعية.

هذه الممارسات تلقى الدعم والتأييد والمساندة من حكومات وساسة دول الغرب الاستعمارية المتصهينة، حيث تتصادف كتابة هذا الفصل من الكتاب مع تشديد الحصار والعقوبات الجماعية وبدء عمليات القصف الجوي على غزة المحاصرة، وارتكاب القوات الصهيونية المدعومة غربياً لمحرقة بشعة نازية؛ إنه عمل وحشي يعد جريمة حرب من الدرجة الأولى، تعود بنا جذورها إلى ما تم تحريفه وتدوينه داخل الكتاب المقدس العهد القديم العبري ونصوص الرواية الكتابية التي تحمّل الأوامر الإلهية المدسوسة مسؤولية إبادة الشعوب الكنعانية والعمورية والعمونية والمؤابية والأدومية، وكأن التاريخ الإجرامي الوحشي العبري هنا يعيد نفسه، لكن هذه المرة على مسمع ومرأى من أمم وشعوب تدّعي الحضارة والأخلاق الإنسانية. والفضل في ذلك لثورة الاتصالات التي تتيح للعالم (من عرب وغربيين مسلمين ومسيحيين ويهود) رؤية ما يحدث في فلسطين، وبالتالي يضع الجميع شاؤوا أم أبوا أمام مسؤوليات كبيرة من المفترض أن تمنع استمرار هذه الكارثة.

نبدأ البحث هنا بالسؤال التالي:

- هل إجراءات وممارسات الحظر والحصار وبناء الجدار والحواجز والأسوار إجراء نابع من ضرورات أمنية صهيونية أملتها ظروف موضوعية آنية لا تلبث أن تنتهي، فيتوقف هذا الإجراء (الحصار، والحظر، والتجويع، وبناء جدار الفصل العنصري، وإقامة الحواجز العسكرية، والعقوبات الجماعية) بمجرد انتهاء الأسباب والظروف التي أملتها عليها هذه الإجراءات؟ أم هي عقيدة وثقافة وسلوك متأصل وعميق الجذور في صلب العقلية الفكرية وتركيب الشخصية للجماعة العبرانية اليهودية؟

وهل اتباع الأسلوب والمنهج ذاتهما بحق كوبا والعراق والسودان وإيران وكوريا الشمالية (وقانون محاسبة سوريا) (وتصنيف الدول بمحور الشر) من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، هو بمثابة الأيديولوجيا والاعتناق اللاهوتي لهذه الممارسات المتبناة منهاجاً وسلوكاً، مرتبطاً بالعقيدة التوراتية والتلمودية ضمن قصص (الكتاب المقدس). لذلك أصبحت هذه الممارسات بحق الآخر غير الأنكلوساكسوصهيوني بمثابة موقف يشابه موقف (الشعب المختار التوراتي) المزعوم بحق (الغويم) الشعوب الأجنبية، التي خرجت من رحمة الرب بعهد مع

الإلـه العبـري، الـذي حصـر العدالـة والحيـاة والحقـوق بشـعبه المختـار علـى جبـل سيناء، حيث اعتبرت الشعوب الأخرى دونية ومسخرة للذلة والعبودية!

من هذه المبـادئ التوراتيـة الصـهيونية يستمد بعض أقطـاب النظـام الغربـي المنافق سلوكياتهم ومبرراتهم وحقدهم علـى العرب والمسلمين. ومـن هذه العقيدة العنصـرية الموبـوءة بالشر والعدوان تتبنـى الـدول الغربيـة مواقف الـدعم المطلق واللامحدود لنظام الفصل العنصري الصـهيوني، بإمداده بكل أسباب الحيـاة والبقـاء والقوة والدعم السياسي والأسلحة المتطورة، بما فيها المفاعلات والأسلحة النوويـة كـ (فرنسـا وبريطانيـا)، فـي وقت تتبجح فيـه هذه الـدول بحرصـها علـى الحد من انتشار الأسلحة النووية، لا سيما عندما يتعلق الأمر بـإيران الإسـلامية، معتمدين علـى معـايير مزدوجـة. لا يخفـي أصـحاب هـذا الـنهج عنصـريتهم وتلمـوديتهم، فإسرائيل دولة حضارية غربية يهودية حليفة تجمع شتات (شعب الرب)، وذات قيم غربية صهيومسيحية؛ بينما إيران دولة للمسلمين الكفار (السارزن) لا تقارن بدولة اليهود، وهي دولة مارقة (محور الشر) ومعادية للطموحات الاستعمارية!

ببساطة هكذا، وبوقاحة تتشدَّق الدول المدعية للديمقراطية وحقوق الإنسان والحيوان الغربية، وتجاريها في ذلك بعض الدول والأنظمة العربية التابعة لها سياسياً!

تتخلى حكومات الغرب الديمقراطية عن حرية شعوبها وحقها بالتعبير، أو الاستنكار والتضـامن الإنسـاني، حينمـا يتعلـق هـذا الاسـتنكار والتنديـد بإسـرائيل والصهيونية. وتتنكر هذه الدول لديمقراطيتها، وتقمع تحركات شعوبها الأخلاقيـة والإنسـانية الحـرة، وتصـادر حريـة كتابهـا ومفكريهـا والأحـرار مـن ساسـتها، إذا ما تعارضت هذه الأنشطة مع مصلحة الصهيونية والإمبريالية الأمريكية، وتتحول فجأة إلى حكومات قمعية لا ديمقراطية تمارس أعلى وأقسى درجات التطاول على القوانين بتطرف وأصولية لاهوتية.

مـرة أخـرى أنـاقش فـي هـذا البحـث مـن خـلال روايـة (الكتـاب المقـدس) العبري، كما وردت على الرغم من عدم إيماني بها بشكلها الذي حرفت بـه، ومن قناعاتي الراسخة أن هذا الكتـاب لا يشكل (كلمـة الله المقدسـة)، ولـيس هـو بكاملـه التوراة الهدائية التي نزلت على النبي موسـى (صـلى الله علبـه وسـلم)؛ ومـن المنطق الذي لا يخلو من تشريع للسلب والنهب، ويخالف مخالفة صـريحة وصـايا الرب العشر (لاتسرق، لا...)؛ ومـن سفر يوشـع المدون (وَأَعْطَيْتُكُمْ أَرْضـاً لَـمْ تَتْعَبُوا عَلَيْهَا وَمُدُناً لَمْ تَبْنُوهَا وَتَسْكُنُونَ بِهَا، وَمِنْ كُرُومٍ وَزَيْتُونٍ لَمْ تَغْرِسُوهَا

تَأْكُلُونَ)[1]. وتتشابه القصة واعتناقها هنا بين قصة غزو كنعان الكتابية وبين غزو القارة الأمريكية وإبادة سكانها من الهنود الحمر، وفي هذا الانتحال تلاعب وتبديل وتحريف لا لبس فيه لإرادة وطبيعة الإله الواحد الذي يدعو للحق والعدل والمساواة والهداية ونظام الأخلاق والمحبة والإنسانية.

العبارات المدونة داخل الكتاب العبري التي شكلت وتشكل جذور وحضارة الثقافة الغربية الحضارية اللطيفة، كما يدّعى، هي المعيار والمنطلق الاستعلائي الذي تعامل به الشعوب الأخرى غير التوراتية والموروث عن دفائن النفسية الصهيويهودية. وسأحاول تفنيد بعض ما جاء فيه، وبعض أسباب هذه العدوانية (فَدَفَعَهَا الرَّبُّ هِيَ أَيْضاً بِيَدِ إِسْرَائِيلَ مَعَ مَلِكِهَا، فَضَرَبَهَا بِحَدِّ السَّيْفِ وَكُلَّ نَفْسٍ بِهَا. لَمْ يُبْقِ بِهَا شَارِداً...)[2]، وفي سفر يشوع المنتحل أيضاً (۞فَضَرَبَ يَشُوعُ كُلَّ أَرْضِ الْجَبَلِ وَالْجَنُوبِ وَالسَّهْلِ وَالسُّفُوحِ وَكُلَّ مُلُوكِهَا. لَمْ يُبْقِ شَارِداً، بَلْ حَرَّمَ كُلَّ نَسَمَةٍ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ. ۞فَضَرَبَهُمْ يَشُوعُ مِنْ قَادِشِ بَرْنِيعَ إِلَى غَزَّةَ وَجَمِيعَ أَرْضِ جُوشِنَ إِلَى جِبْعُونَ. ۞وَأَخَذَ يَشُوعُ جَمِيعَ أُولَئِكَ الْمُلُوكِ وَأَرْضِهِمْ دُفْعَةً وَاحِدَةً، لأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَ إِسْرَائِيلَ حَارَبَ عَنْ إِسْرَائِيلَ)[3].

لنرى هنا هذا الإله الذي حارب عن إسرائيل، فقتل وأباد وسلب ونهب وغزا واحتل، وهو ذاته الإله الذي أمر الرئيس بوش وإداراته المتعاقبة باحتلال أفغانستان والعراق وجنوب لبنان وفلسطين والجولان، وهو الإله ذاته أيضاً الذي أقسم له أن يضرب رأسه بحذاء صحفي عراقي، على مشهد من العالم.

مع إله العبرانيين أيضاً، ومما جاء في سفر يشوع (وَضَرَبُوا كُلَّ نَفْسٍ بِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. حَرَّمُوهُمْ. وَلَمْ تَبْقَ نَسَمَةٌ. وَأَحْرَقَ حَاصُورَ بِالنَّارِ)[4]، ويشوع أيضاً (لأَنَّهُ كَانَ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ أَنْ يُشَدِّدَ قُلُوبَهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا إِسْرَائِيلَ لِلْمُحَارَبَةِ فَيُحَرَّمُوا[5] فَلاَ تَكُونُ عَلَيْهِمْ رَأْفَةٌ، بَلْ يُبَادُونَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى)[6]. هكذا هو الحال الآن مع الشعب الفلسطيني والعراقي في مواجهة إسرائيل وأمريكا لا يرحمون شعب هذه المنطقة، ويقومون باستئصاله من أرضه ولا حقوق له، بل يكافئونه بالإبادة الجماعية، كما تفعل إسرائيل في غزة، وأمريكا في العراق!

١- العهد القديم سفر يشوع 24: 13.
٢- العهد القديم سفر يشوع 10: 30.
٣- العهد القديم سفر يشوع 10: 40-42.
٤- العهد القديم سفر يشوع 11: 11.
٥- فيحرموا: أي يبادوا بالسيف أو بالحرق جميعهم.
٦- العهد القديم سفر يشوع 11: 20.

إنه غيض من فيض مما احتوته رواية الكتاب العبري المقدس من قتل وإبادة وحصار ودمار وتجويع وسلب ونهب، هذه الموبقات سواءً دست في الرواية دساً أم ارتكبت فعلاً، هي بالتأكيد ليست من وصايا موسى العشر التي أُنزِلَت عليه من الله الإله الحق، والتي قُتِل لأجلها على أيديهم غيلةً وغدراً كما نعتقد!

هذا المنطق اللا إلهي البغيض يدعو معتنقيه ومؤيديه من الأغبياء إلى إغلاق كل أبواب الرجوع والتوبة والتطلع لله الواحد أو التصالح مع الذات والغير، ويدفع قسراً إلى انتهاج أسلوب الانعزال والانطواء والتمترس خلف الجدران والأسوار، والتربص بالآخر واعتباره عدواً متربصاً أو شرطياً يبحث عن مجرم، فلا بد من العيش على حد السيف (إما أن تقتلني أو أقتلك). ولسان حال المؤمنين هنا من العرب والفلسطينيين كلسان حال هابيل الصديق في مواجهة حسد وغدر أخيه المجرم قابيل؛ من القرآن الكريم: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

العقلية القابيلية اليهودية الصهيونية التي ورثتها وأورثتها تلك الادّعاءات الإجرامية الفاسدة الحاقدة التي انتهجتها واتخذت منها منهاجاً وسلوكاً تجذر في أعماق نفسيتها وتركيبها، وأصبحت أساساً لثقافتها وممارساتها مع من اعتنقها من الجماعة المتصهينة، التي يطلق عليها تلطيفاً (المحافظون الجدد)، الذين يرتكبون اليوم الموبقات والأعمال العدوانية الشاذة ذاتها، لكن بأساليب أكثر عدوانية وتطور وحداثة وعنجهية بحق الشعوب الأخرى والأمم غير الصهيومسيحية ولا (البروريانيين) غزاة أمريكا الأوائل أصحاب هذا المذهب الصهيوني اليهودي، والذين اعتادوا وبحكم العقيدة الدينية المنغلقة على ذاتها الانعزال والانطواء داخل مجتمعات منعزلة خاصة بهم (كانتونات) داخل أوطانهم وبين مواطنيهم غير اليهود، الذين يتكلمون لغاتهم، ويحملون جنسياتهم وثقافتهم، ويشاركونهم مواطنيتهم، أولئك اليهود الأوروبيون الانطوائيون مكنتهم الإمبريالية الغربية من التجمع (والاقتحام) في أرض لا تربطهم بها أي رابطة قومية أو ثقافية أو عرقية، لكنها ستشكل للغرب قاعدة استيطانية عدوانية تحقق له حماية مصالحه وحرية العبور إلى مستعمراته، وتكون قوة طاغية تضمن له تدفق النفط والمواد الخام المنهوبة إلى بلدانه.

لكن هل اندمج أولئك المهاجرون والمستوطنون داخل المجتمعات التي دخلوها غرباء، كما دخل بنو إسراءيل إلى كنعان (فلسطين) حسب الرواية التوراتية، أم أنهم شكلوا هنا كياناً عنصرياً على حساب مضيفيهم من السكان

١- القرآن الكريم سورة المائدة الآية 28.

الشرعيين، الذين دخلوا إلى أراضيهم وعملوا على طردهم وتهجيرهم وإبادتهم، في تكرار للأسطورة التوراتية، فهم لم يتطلعوا للعيش في موطنهم الجديد في دولة جديدة وعصرية تقوم على المواطنة ومبادئ العدل والشرعية، لتكون هذه الدولة الجديدة التي احتضنتهم واستوعبتهم دولة الحاضر والمستقبل، لكنهم مارسوا بحقد الممارسات الغربية النازية ذاتها التي ارتكبت بحقهم فيما مضى: المحرقة (الهولوكوست)[1].

هذه الممارسات العنصرية والإبادة الجماعية تعرض ويتعرض لها حتى اليوم الشعب الفلسطيني، الذي لم يكن مسؤولاً لا من قريب ولا من بعيد عما حصل لليهود الغربيين من إبادة ومحرقة بشعة على يد الإمبريالية الغربية النازية.

وثمة سؤال أطرحه هنا: هل ستستطيع هذه الجالية الغربية[2] اليهودية تشكيل دولة تقوم على أسس توراتية وتلمودية صهيونية في محيط حضاري مختلف الأعراق والأديان والمذاهب والثقافات، وتشكل هذه التعددية لهذا المحيط أسس مقوماته واستمرار وجوده وتراثه، وفي هذه المنطقة المتوسطية التي أنتجت واحتضنت وتبنت مختلف الديانات السماوية، التي شكلت أسس نظام تعايشها وتماسكها وتسامحها؟ وهل ستكون هذه الدويلة كياناً قابلاً للحياة والاستمرار ضمن هذا المحيط التعددي المختلف؟

بالتأكيد لن تتقبل شعوب المنطقة قيام مثل هذا الكيان الشاذ والمتناقض مع ثقافتها وتركيبتها، والذي يهدد قيامه بعنصريته وطائفيته خطراً كبيراً يهدد وحدتها ووجودها وثقافتها وتراثها، فقد أصبح وجود هذا الكيان الغريب الهجين بمثابة الشوكة الموجعة التي انغرست بالقوة داخل جسد هذه الشعوب، هذا الجسد سيلتهب وجعاً وترتفع درجات حرارته وتنتابه الحمى، وستتداعى أعضاؤه كلها لاستخدام مناعتها للفظ هذه الجرثومة الغربية التي دخلت عنوة داخل نسيجها واخترقت واحداً من أعضائها. من هذا المنطق ترى هذا الكيان في وجوده غريباً وغير قابل للصمود والاستمرار بينها. وإذا كنا نتحدث عن السلام الشامل والعادل برؤية جماعية وواقعية، فيجب أن نقول وبصراحة مطلقة أن لا حصار ولا أسوار أو حواجز أو جدران إسمنتية أو تفوقاً عسكرياً أو دعماً غربياً أو مذابح أو محارق جماعية تستطيع أن توفر لهذا الكيان العنصري الأمان والاستقرار والسلام. إن استمرار دويلة توراتية تلمودية تتحدث بلسان الأموات وتقوم على أسس عقابية وإرهابية مستمدة من قصص وتاريخ الرواية العبرية الأسطورية، ستحمل حتماً أسباب انهيارها وزوالها الذاتية النابعة من عقم التأسس والبناء لقيام دولة على أسس أسطورية أو لاهوتية في منطقة تعددية وعربية تقوم أسس وجودها وتعايشها على

١- لكنها كانت معدة لفقراء اليهود الغربيين. إنها محرقة الكم الغربي الفائض عن الحاجة للنازية والغربية، لم يصب جحيمها أثرياء ومتنفذي اليهود، لكنهم تاجروا بها وبدماء فقراء أبناء عقيدتهم فيما بعد.

٢- يقصد دائماً باليهودية الغربية يهود أوروبا الشرقية والغربية وأمريكا وكندا وآسيا وأستراليا.

الشراكة والإخاء والتعايش والتسامح داخل الوطن الواحد، وعلى قاعدة ثورية علمية (الدين لله والوطن للجميع).

لم تستطع فبركة الكتبة والأحبار اليهود للرواية العبرية وما تحمله من طمس معالم الحقيقة والواقع من وصف تلك الشعوب المحبة والمسالمة التي دخل إليها آل يعقوب (صلى الله عليه وسلم)، وقامت باحتضانهم وساكنتهم وتقبلتهم في الماضي ليصبحوا جزءاً منها، كتابياً بالشعوب الملعونة والكافرة والوثنية، في وقت تبنت فيه القبيلة العبرية، وباعتراف أنبيائها وحكمائها ضمن الرواية العبرية ثقافاتها وعباداتها وآلهتها ووثنيتها!

في قصة لافتة ومعبرة عن دقائق النفسية العبرية من غش وخداع ومكر وكراهية للآخر، وبحسب ما أوردته الرواية التوراتية في سفر التكوين (۞وَقَالَ لَهُمْ حَمُورُ: شَكِيمُ ابْنِي قَدْ تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِابْنَتِكُمْ. أَعْطُوهُ إِيَّاهَا زَوْجَةً ۞وَصَاهِرُونَا. تُعْطُونَنَا بَنَاتِكُمْ وَتَأْخُذُونَ لَكُمْ بَنَاتِنَا ۞وَتَسْكُنُونَ مَعَنَا وَتَكُونُ الأَرْضُ قُدَّامَكُمُ. اسْكُنُوا وَاتَّجِرُوا فِيهَا وَتَمَلَّكُوا بِهَا». ۞ثُمَّ قَالَ شَكِيمُ[1] لأَبِيهَا وَلإِخْوَتِهَا: «دَعُونِي أَجِدْ نِعْمَةً فِي أَعْيُنِكُمْ. فَالَّذِي تَقُولُونَ لِي أُعْطِي. ۞كَثِّرُوا عَلَيَّ جِدّاً مَهْراً وَعَطِيَّةً فَأُعْطِيَ كَمَا تَقُولُونَ لِي. وَأَعْطُونِي الْفَتَاةَ زَوْجَةً»).[2]

ونلاحظ الخلط الفاضح بين الديانة والعادات وبين التكوين العنصري والفكر الشوفيني الاستعلائي وانتحال الأعذار ونسب هذه الممارسات لأوامر الإله الخالق! ومن سفر القضاة: (۞فَسَكَنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِّزِيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، ۞وَاتَّخَذُوا بَنَاتِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً وَأَعْطُوا بَنَاتِهِمْ لِبَنِيهِمْ وَعَبَدُوا آلِهَتَهُمْ. ۞فَعَمِلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَنَسُوا الرَّبَّ إِلَهَهُمْ وَعَبَدُوا الْبَعْلِيمَ وَالسَّوَارِيَ)[3].

في سفر عزرا، وهو الحكيم العراب لحقبة ما بعد الجلاء إلى بابل والعودة للقدس، نلاحظ استمراراً للطبيعة الانطوائية على الذات والعدوانية الفاضحة للشعوب الأخرى غير الصهيونية اليهودية (وَالآنَ فَلاَ تُعْطُوا بَنَاتِكُمْ لِبَنِيهِمْ وَلاَ تَأْخُذُوا بَنَاتِهِمْ لِبَنِيكُمْ وَلاَ تَطْلُبُوا سَلاَمَتَهُمْ وَخَيْرَهُمْ إِلَى الأَبَدِ لِتَتَشَدَّدُوا وَتَأْكُلُوا خَيْرَ الأَرْضِ وَتُورِثُوا بَنِيكُمْ إِيَّاهَا إِلَى الأَبَدِ)[4]. ومن السفر التوراتي العنصري

١- شكيم هو ابن حمور ملك (نابلس). وتتحدث التوراة عن إبادة كاملة قام بها ولدي يعقوب بالسيف بحق جميع سكانها وسلب ممتلكاتها وحيواناتها وسبي نسائها انتقاماً لأختهم دينة ابنة يعقوب التي اغتصبها شكيم ثم طلبها زوجة، حيث اشترط عليه بنو يعقوب أن يتختن، فقام الملك حمور بختن كل ذكور المدينة، وبينما هم في وجعهم انقض عليهم خداعاً ومكراً ولدا يعقوب وأبادوهم انتقاماً.

٢- العهد القديم سفر التكوين 34: 8-12.

٣- العهد القديم سفر القضاة 3: 5-7.

٤- العهد القديم سفر عزرا 9: 12.

الصهيوني أيضاً سفر عزرا: (۞...لَمْ يَنْفَصِلْ شَعْبُ إِسْرَائِيلَ وَالْكَهَنَةُ وَاللاَّوِيُّونَ مِنْ شُعُوبِ الأَرَاضِي حَسَبَ رَجَاسَاتِهِمْ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ وَالْعَمُّونِيِّينَ وَالْمُوآبِيِّينَ وَالْمِصْرِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ. ۞لأَنَّهُمُ اتَّخَذُوا مِنْ بَنَاتِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ وَلِبَنِيهِمْ وَاخْتَلَطَ الزَّرْعُ الْمُقَدَّسُ بِشُعُوبِ الأَرَاضِي...)[1]، إنها أراضٍ، وليست فلسطين التاريخية. إنها الأسطوانة المشروخة البالية نفسها المتبناة منذ ما قبل الخروج (السبي)، والتي استمرت لما بعده وإلى اليوم، وعبارة (...اخْتَلَطَ الزَّرْعُ الْمُقَدَّسُ...)[2] بشعوب الأراضي وعودة للقول الذي سبق على لسان عزرا (الوراق) (...وَتَأْكُلُوا خَيْرَ الأَرْضِ وَتُورِثُوا بَنِيكُمْ إِيَّاهَا إِلَى الأَبَدِ)[3]، فذلك يظهر بوضوح الدعوة إلى إبادة شعوب هذه الأرض بما فيها مصر، وغيرها، حتى يتمكنوا من وراثتها إلى الأبد. وضمن هذا الخطاب البائس الكريه، لا يزال البدو المتوحشون العبريون يعتبرون أنفسهم شعباً مقدساً مختاراً ومفضلاً على بقية شعوب العالم، مهما اعتنقوا من ديانات وعبادات قد تكون أكثر حضارة وأخلاقية من ديانتهم، أو حتى لو أصبح العبرانيون يعتنقون مذاهب إلحادية. والمسألة هنا محض مسألة عرقية.

وأذكر أن بين عصر القضاة وعصر عزرا أكثر من ستمئة عام، قضى فيها بنو إسرائيل أكثر من سبعين عاماً، هي مدة الخروج وحتى العودة، بين البابليين والآشوريين والفرس، وهناك كتبوا توراتهم العبرية على يد عزرا الوراق، وهناك أيضاً تم التحول من التوراة الآرامية إلى التوراة العبرية، وكتب التلمود باللغة العبرية (التلمود البابلي).

يقول الدكتور أحمد سوسة في كتابه (العرب واليهود في التاريخ): (ومن الثابت أن هؤلاء الموسويين أخذوا بالآرامية بعد انتشارها في الشرق، فصاروا يتكلمون بها فيما بينهم. وفي غضون ذلك تكونت لدى كهنتهم اللهجة الآرامية الخاصة بهم، وهي التي صارت تعرف فيما بعد بالعبرية، وأخذوا يكتبون بها، فاستعملوا حروفاً فينيقية قديمة في بداية الأمر، ثم أخذوا يكتبون بالخط السامري. وبعد السبي البابلي، وضع الكهنة في الأسر في بابل توراتهم بهذه اللهجة المقتبسة من اللغة الآرامية، لذلك صارت تعرف بآرامية التوراة. وقد استعملوا الخط المسمى بالخط المربع الذي اقتبسوه من أقدم الأقلام الآرامية بين القرنين السادس

١- العهد القديم سفر عزرا 9: 1-2.
٢- العهد القديم سفر عزرا 9: 2.
٣- العهد القديم سفر عزرا 9: 12.

والرابع قبل الميلاد فحفظوه إلى يومنا هذا، ويسمى الآن الخط الآشوري المربع، وهذه هي بالطبع غير لغة موسى المصرية التي نزلت فيها التوراة الأصلية، كما إن مضمون هذه التوراة غير مضمون توراة موسى، فهذه التوراة يصح تسميتها بتوراة الكهنة التي وضعوها في الأسر في بابل، فأضفوا عليها القدسية وفرضوها على أتباعهم بعد رجوع بعضهم إلى فلسطين في عهد عزرا (كاتب شريعة إله السماء)، كما تلقبه التوراة. يقول ليون أبراهام: إن العبرية قد اختفت باكراً كلغة حية، وتبنى اليهود في كل مكان لغات الشعوب المجاورة، ولكن استعمل هذا التبني اللغوي عادة بلهجة جديدة حيث ترد بعض العبارات العبرية... ونجد في حقبات مختلفة من التاريخ لهجات عبرية عربية، وعبرية فارسية، وعبرية بروفنسية، وعبرية برتغالية، وعبرية أسبانية ...إلخ. هذا عدا عن إشارة إلى العبرية الألمانية التي أصبحت اللغة الإيديشية في عصرنا الحاضر». ويتابع الدكتور سوسة: «والحقيقة أن المقصود بالعبرية القديمة هي اللغة الكنعانية القديمة لغة أهل البلاد الأصلية لا غير، وهي التي أخذ بها الموسويون بعد عصر موسى، إذ لم تظهر العبرية إلا بعد أن أخذ الكهنة اليهود يدونون توراتهم في لهجة (آرامية التوراة) المقتبسة من الآرامية، مع العلم أنه ليس لدينا أي دليل على أنه كانت في البلاد (فلسطين) في عصر الملوك لغة غير لغة سكان فلسطين الأصليين، وهي لغة الكنعانيين القديمة)[1].

إن سبعمئة عام من الاختلاط والتعايش كانت كافية للتغيير في الطبيعة الانطوائية العدوانية للتحول نحو التحضر، ومع اعتناق الشعوب التي عاشوا بينها للموسوية والمسيحية والإسلام، إلا إن ذلك لم يغير في بني إسرائيل من طبائعهم ودعواتهم لإبادة الشعوب الأخرى والسطو على ممتلكاتها وأراضيها. أي مفكر وباحث وجداني متخصص في علم الاجتماع والمنطق سيلاحظ أن الإسلام والمسيحية استطاعا الانتشار والاندماج والتواصل واستقطاب شعوب مختلفة تواجدت على هذه الأرض، فأصبحت مسيحية ومسلمة، على الرغم من اختلاف ألسنتها وثقافاتها وألوانها والمناطق المختلفة من الأرض التي تسكنها. أما الرواية العبرية فتجعل من استئصال الشعوب وإبادتها واحتلال أراضيها وسلب ممتلكاتها شرطاً أساسياً إلهياً يحقق لمدعوه وراثة الأرض والثروات وتحقيق العدالة الإلهية! لم يرد أي ذكر في الرواية الكتابية العبرانية لدعوة أو نشر دين أو حملة هدائية، كما في المسيحية والإسلام، إنما ما دون هو تقريع للشعوب الأخرى ولعنتها وتكفيرها وممارسة الإرهاب عليها وإبادتها أو سبيها واستعبادها!

في منطقة تمتد بين الفرات والنيل يتوجب قيام مملكة الرب الأرضية (إسرائيل) الصهيونية، فشعوب هذه المنطقة خُلقت أمامهم للإبادة أو لتكون لهم

١- (العرب واليهود في التاريخ): د. أحمد سوسة، ص 671-673.

سبايا وعبيداً، كما تقول الرواية العبرية الإلهية: (لكي يحرموا ولا يرحموا بل يستأصلوا). أتلك هي رواية (الكتاب المقدس)؟، ولكن ألم يطبق اللوثريون أتباع الكنيسة الأنكلكانية من الأنجلوساكسون بدايةً هذه المقولات الموتورة على سكان القارة الأمريكية، ثم لاحقاً على أستراليا؟

ألم تجري من قبلهم محاولات أخرى لتطبيق هذه (الكتابيات الملفقة) على السكان الأصليين لجنوب أفريقيا، ويجري العمل الآن على تطبيقه أيضاً بحق سكان فلسطين كمرحلة أولى لدعم وتأييد الغرب (ليهودية الدولة الصهيونية)؟!

(۞...اذْهَبُوا وَاضْرُبُوا سُكَّانَ جِلْعَادَ بِحَدِّ السَّيْفِ مَعَ النِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ. ۞وَهذَا مَا تَعْمَلُونَهُ. تُحَرِّمُونَ كُلَّ ذَكَرٍ وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَت اضْطِجَاعَ ذَكَرٍ. ۞فَوَجَدُوا يَابِيشَ جِلْعَادَ أَرْبَعَ مِئَةِ فَتَاةٍ عَذَارَى[1] لَمْ يَعْرِفْنَ رَجُلاً بِالاضْطِجَاعِ مَعَ ذَكَرٍ وَجَاءُوا بِهِنَّ إِلَى الْمَحَلَّةِ إِلَى شِيلُوهَ الَّتِي فِي أَرْضِ كَنْعَانَ)[2].

إن أي ضمير إنساني وعقل سوي ومتفكر سوف يتساءل هنا وبدهشة: ما علاقة الأطفال في هذا الفتح وهذه الدعوة؟ هل هناك طفل مؤمن وآخر كافر؟ ما هي هذه الدعوة التوحيدية الشاذة المبنية على القتل والتحريم والإبادة والسلب وقتل النساء والأطفال؟ ما هذه الديانة والأوامر الإلهية؟ ومن هو هذا الإله الوحشي الظالم الفاسد الذي يأمر العصاة بقتل خلقه وعياله؟ ولماذا خلقهم إذاً إن كان حقاً هو الإله الخالق المدّعى داخل هذه الرواية العنصرية والخرافية، بما هي عليه من أعمال وحشية وموبقات وممارسات لا أخلاقية ولا إنسانية؟!

كيف أباح بنو إسراءيل لأنفسهم وبزعم الرواية التوراتية اتخاذ آلهة وثنية (البعليم وعشتروت) الذين أحرقوا لها البخور واتّخذوا آلهةً لهم عجولاً ذهبيةً عبدوها وسجدوا لها، ثم طلبوا الصفح والغفران، واستجدوا العذر لأنفسهم في وقت أباحوا فيه إبادة شعوب أخرى تحت ادّعاء باطل (بالقضاء على الوثنية)، وهي المعايير المزدوجة ذاتها التي تتبناها اليوم الإمبريالية الغربية والأمريكية.

لم تنسب زوراً وبهتاناً هذه الديانة والدعوة الفاشية العصبوية للنبي موسى ورسالته الهدائية؟

تخلط الأسطورة التوراتية بين الخرافة واللاهوت وبين التاريخ والجغرافيا، وتستغبي بروايتها المتناقضة العقل البشري وتستخف به وتسطحه، لا سيما حينما

١- تدعي التوراة أنه وجد في جلعاد الأردن أربعمئة فتاة عذراء لم تعرف مضاجعة ذكر؛ هل كان مع بني إسرائيل مستشفى ميدانياً وطبيباً شرعياً يفصل بين البكر والثيب؟ إن حصل ذلك فهو يسقط شرعياً فرضية محاربة من يحاربك في حين يفصل النساء عن الفتيات بالتمييز بينهما. هل تدخل هذه الأسطورة في أي عقل طبيعي وسوي؟

٢- العهد القديم سفر القضاة 21: 10-12.

تخلط بين الأقصوصة الشعبية والديانة التوحيدية وشريعة موسى. ومن سفر القضاة أيضاً: (۞وَنَزَلَ شَمْشُونُ إِلَى تِمْنَةَ وَرَأَى امْرَأَةً فِي تِمْنَةَ مِنْ بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، ۞فَصَعِدَ وَأَخْبَرَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَقَالَ: «قَدْ رَأَيْتُ امْرَأَةً فِي تِمْنَةَ مِنْ بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، فَالآنَ خُذَاهَا لِيَ امْرَأَةً». ۞فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ وَأُمُّهُ: «أَلَيْسَ فِي بَنَاتِ إِخْوَتِكَ وَفِي كُلِّ شَعْبِي امْرَأَةٌ حَتَّى أَنَّكَ ذَاهِبٌ لِتَأْخُذَ امْرَأَةً مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ الْغُلْفِ؟»[1]... ... ۞فَنَزَلَ شَمْشُونُ وَأَبُوهُ وَأُمُّهُ إِلَى تِمْنَةَ وَأَتَوْا إِلَى كُرُومِ تِمْنَةَ. وَإِذَا بِشِبْلِ أَسَدٍ يُزَمْجِرُ لِلِقَائِهِ. ۞فَحَلَّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ، فَشَقَّهُ كَشَقِّ الْجَدْيِ وَلَيْسَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ...)[2]

(۞وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ أَحَبَّ امْرَأَةً فِي وَادِي سَوْرَقَ اسْمُهَا دَلِيلَةُ. ۞فَصَعِدَ إِلَيْهَا أَقْطَابُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَقَالُوا لَهَا: «تَمَلَّقِيهِ وَانْظُرِي بِمَاذَا قُوَّتُهُ الْعَظِيمَةُ، وَبِمَاذَا نَتَمَكَّنُ مِنْهُ لِنُوثِقَهُ لإِذْلاَلِهِ، فَنُعْطِيَكِ كُلُّ وَاحِدٍ أَلْفاً وَمِئَةَ شَاقِلِ فِضَّةٍ». ۞فَقَالَتْ دَلِيلَةُ لِشَمْشُونَ: «أَخْبِرْنِي بِمَاذَا قُوَّتُكَ الْعَظِيمَةُ وَبِمَاذَا تُوثَقُ لإِذْلاَلِكَ؟»... ... ۞...فَقَالَ لَهَا: إِذَا ضَفَرْتِ سَبْعَ خُصَلِ رَأْسِي مَعَ السَّدَى، ... ... ۞وَلَمَّا رَأَتْ دَلِيلَةُ أَنَّهُ قَدْ أَخْبَرَهَا بِكُلِّ مَا بِقَلْبِهِ، أَرْسَلَتْ فَدَعَتْ أَقْطَابَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَقَالَتِ: «اصْعَدُوا هَذِهِ الْمَرَّةَ فَإِنَّهُ قَدْ كَشَفَ لِي كُلَّ قَلْبِهِ». فَصَعِدَ إِلَيْهَا أَقْطَابُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَأَصْعَدُوا الْفِضَّةَ بِيَدِهِمْ. ۞وَأَنَامَتْهُ عَلَى رُكْبَتَيْهَا وَدَعَتْ رَجُلاً وَحَلَقَتْ سَبْعَ خُصَلِ رَأْسِهِ، وَابْتَدَأَتْ بِإِذْلاَلِهِ، وَفَارَقَتْهُ قُوَّتُهُ. ۞وَقَالَتْ: «الْفِلِسْطِينِيُّونَ عَلَيْكَ يَا شَمْشُونُ». فَانْتَبَهَ مِنْ نَوْمِهِ وَقَالَ: «أَخْرُجُ حَسَبَ كُلِّ مَرَّةٍ وَأَنْتَفِضُ». وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الرَّبَّ قَدْ فَارَقَهُ! ۞فَأَخَذَهُ الْفِلِسْطِينِيُّونَ وَقَلَعُوا عَيْنَيْهِ، وَنَزَلُوا بِهِ إِلَى غَزَّةَ وَأَوْثَقُوهُ بِسَلاَسِلِ نُحَاسٍ. وَكَانَ يَطْحَنُ فِي بَيْتِ السِّجْنِ.)[3].

هذه الحكاية التخويفية الخرافية تصلح حكايات تحكيها الجدات قبل النوم للأطفال من جانب، وتعبر عن تحريض من قبل الكتاب والكهنة الإسرائيليين للانعزال والانطواء على الذات من جانب آخر، فتستخدم رواية خرافية اختزلت فيها حضور الرب بخصل شعر شمشون الجبار، الذي شق أسداً لنصفين كجدي ماعز بيديه. هذا الرب الذي اعتزل شمشون وتركه بيد الفلسطينيين انتقاماً، لأنه حاول الزواج بإحدى بناتهم، ليكون عبرة لكل من يتواصل ويتعايش مع الشعوب الأخرى غير اليهودية الصهيونية. هناك تحريض وحقد لا تخفيه هذه الرواية الخرافية التي تبحث للموحدين اليهود الشعب المختار عن نصرٍ وملك أرضٍ ليس أكثر!

١- الغلف: الفلسطينيون غير المختونين في لحم قلفتهم كما بنو إسرائيل.

٢- العهد القديم سفر القضاة 14: 1-6.

٣- العهد القديم سفر القضاة 16: 4-21.

يعتقد البدائيون الغزاة قتلة الأنبياء، كتبة وكهنة وأحبار، أن الخرافات والأساطير البطولية المدعاة داخل النص العبراني تخلق تاريخاً وماضياً بطولياً مشرفاً يجعل منهم شعباً مقدساً، فيأتي التاريخ نفسه بعلومه وآثاره المكتشفة ليفضح زيف وعقم ادّعاءاتهم وخرافاتهم من داخل الرواية العبرية المتناقضة مع ذاتها ومضامينها. وحين يشوه الكتبة تاريخ وحضارة وديانة الكنعانيين لاستخدامه مبرراً لعمليات التحريم والسلب والنهب والإبادة، يتناقضون مع قصصهم المبتورة. ومما جاء في الرواية التوراتية: (۞وَمَلْكِي صَادِقُ مَلِكُ شَالِيمَ أَخْرَجَ خُبْزاً وَخَمْراً. وَكَانَ كَاهِناً لِلَّهِ الْعَلِيِّ. ۞وَبَارَكَهُ وَقَالَ: «مُبَارَكٌ أَبْرَامُ[1] مِنَ اللهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۞وَمُبَارَكٌ اللهُ الْعَلِيُّ الَّذِي أَسْلَمَ أَعْدَاءَكَ فِي يَدِكَ». فَأَعْطَاهُ عُشْراً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)[2]. ويأتي أيضاً العهد الجديد مُكذِباً لدعواهم وزيفهم: (۞لأَنَّ مَلْكِي صَادِقَ هَذَا، مَلِكَ سَالِيمَ[3]، كَاهِنَ اللهِ الْعَلِيِّ، الَّذِي اسْتَقْبَلَ إِبْرَاهِيمَ رَاجِعاً مِنْ كَسْرَةِ الْمُلُوكِ وَبَارَكَهُ، ۞الَّذِي قَسَمَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ عُشْراً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. الْمُتَرْجَمَ أَوَّلاً «مَلِكَ الْبِرِّ» ثُمَّ أَيْضاً «مَلِكَ سَالِيمَ» أَيْ مَلِكَ السَّلاَمِ ۞بِلاَ أَبٍ بِلاَ أُمٍّ بِلاَ نَسَبٍ. لاَ بَدَاءَةَ أَيَّامٍ لَهُ وَلاَ نِهَايَةَ حَيَاةٍ. بَلْ هُوَ مُشَبَّهٌ بِابْنِ اللهِ. هَذَا يَبْقَى كَاهِناً إِلَى الأَبَدِ)[4]. ومن العهد الجديد عبرانيين: (لأَنَّ أُولَئِكَ بِدُونِ قَسَمٍ قَدْ صَارُوا كَهَنَةً، وَأَمَّا هَذَا فَبِقَسَمٍ مِنَ الْقَائِلِ لَهُ: «أَقْسَمَ الرَّبُّ وَلَنْ يَنْدَمَ، أَنْتَ كَاهِنٌ إِلَى الأَبَدِ عَلَى رُتْبَةِ مَلْكِي صَادِقَ»)[5] (ملكي صادق) أو (مالك صادق) ملك شاليم أو ساليم (القدس) العربي اليبوسي الكنعاني، الذي بارك إبراهيم الخليل باسم الله الواحد العلي ملك السموات والأرض، وقبل نزول التوراة على النبي موسى بأكثر من ستمئة عام على الأقل، والذي اعتبره العهد الجديد (عبرانيين) شبه ابن الله العلي، الملك مالك صادق ملك القدس (السلام) اليبوسي نسبة إلى اسم القدس القديم (يبوس). لم تستطع الرواية التوراتية على الرغم من

١- أبرام هو إبراهيم عليه السلام.
٢- العهد القديم سفر التكوين 14: 18-20.
٣- ساليم هي القدس.
٤- العهد الجديد الرسالة إلى العبرانيين 7: 1-3.
٥- العهد القديم الرسالة إلى العبرانيين 7: 21.

تحريفها من التنكر لـه ولتوحيده وقومـه الكنعـانيين، فمـن هو ملكـي صـادق كـاهن الرب هذا؟ وما هو أصله؟

«يرجع تاريخ ملكـي صـادق إلـى القرن التاسـع عشر قبل الميلاد (أي قبل قدوم إبراهيم إلى كنعان)، وهو زمن إبراهيم الخليل (صلى الله علبه وسلم). وهو من نسل كنعان. كان ملكاً علـى مدينـة أورشـاليم وولايتهـا التـي كانـت تعرف باليبوسية نسبة إلى يبوس ولد كنعان. وجاء فـي بعض التقاليد اليهوديـة أن (ملكـي صادق) هو سام، وأن تقدمه بالعمر وشرف نسبه جعلاه جديراً بأن يبارك إبـراهيم (صـلى الله علبـه وسـلم). ويـرى العلمـاء المحـدثون أن (ملكـي صـادق) مـن سلالة كنعان، وكـان محافظـاً علـى سـنة الله بـين شـعب وثنـي، وقد عـرف بـالتقوى والزهد، وقيل إن ملكـي صـادق كـان يسكن هـو وقومـه الكهـوف، وكـان أول مـن اختط أورشليم وبناها، وكان محباً للسلام حتى أطلق عليه اسم (ملك السلام)، ومن هنا جاء اسم المدينـة (أورشـاليم شـالم سـالم) أي مدينـة السـلام. وقد ذكـر المطـران يوسف الدبس: (إن أبا الفرج ابن العبري قال: إن ملكـي صـادق هو ابـن عـابر أو أحد أحفاد سام. وزعم بعضهم أنه من ذرية حام، وقال غيرهم إنه ابن صيدون بـن كنعان. والأظهر والأشبه للصواب إن ملكـي صـادق مـن ذريـة سـام، وإن عشيرته كانت إحدى العشائر القليلة التي استمرت على الاعتقاد بوحدانية الله)[1].

اليبوسيون سكان يبوس وبناة معبدها الأول، هم عرب كنعانيون، وملكهم ملكي صادق، وهم سكان البلاد الأصليون. نلاحظ كيف تقوم الروايـة العبريـة بالتحريض عليهم باسم النبي موسى انتحالاً، وكيف تحض على إبادتهم وسلب ممتلكاتهم وأراضيهم باسم الرب العلي كذباً وظلماً، تماماً كما تفعل (إسرائيل الجديدة الغربية) اليوم بأحفادهم من العرب الفلسطينيين، والعالم كله يشهد كيف تعمل على تهجيرهم وإبادتهم وتجويعهم وحصارهم، كما يتابع الجميع هذه الأيام المحرقة البشعة التي يرتكبونها اليوم بحق سكان قطاع غزة المحاصر والمنكوب. سنحاول التقصي للتعرف على ثقافة وسياسة الحصار والجدار والأسوار والانعزال، التي تتبناها اليوم الدويلة العبرية منهاجاً لها ودستوراً موروثاً.

الفكر الانطوائي الاستعلائي وسياسة القوة ورب الجنود، وعسكرة المجتمع الصهيوني، والتعالي على الشعوب الأخرى المشوب بالعنصرية والتمييز، لم يتم التخلي عنه حتى بعد الجلاء والعودة من بابل إلى القدس، والاحتكاك بالشعوب غير العبرانية. لم يتعظ الحكماء من اليهود، الذين سمي بعضهم (الأنبياء

١- أحمد سوسة (تاريخ العرب واليهود ص 784-785) ومن كتاب (تاريخ سوريا ج 1 مجلد 2 ص 25) للكاتب نفسه.

المتأخرين) من السبي وغضب الرب عليهم بسبب تبنيهم عقيدة الحرب والتسلط واحتقار الآخر وسلبه ونهب أرضه، ادعاءً أنها أوامر إلهية، بل عمل اليهود المسبيّون أصحاب الفكر الصهيوني الاستعلائي على تكريس وترسيخ هذه القيم العنصرية التمييزية القبيحة داخل الرواية الكتابية، التي عبثوا بها في بلاد بابل وفارس، وادّعوا أن عدم اعتناقها هو ما جلب السبي والاضطهاد على اليهود من قبل الرب، وأنَّ رفع هذا العقاب يكون بتبنيها والعودة إليها بعد تحريفها. ونقرأ في سفر نحميا: (وَلَمَّا سَمِعَ سَنْبَلَّطُ وَطُوبِيَّا وَجَشَمُ الْعَرَبِيُّ[1] وَبَقِيَّةُ أَعْدَائِنَا أَنِّي قَدْ بَنَيْتُ السُّورَ وَلَمْ تَبْقَ فِيهِ ثُغْرَةٌ عَلَى أَنِّي لَمْ أَكُنْ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ قَدْ أَقَمْتُ مَصَارِيعَ لِلأَبْوَابِ)[2].

كما نقرأ في أسفار ما بعد السبي والجلاء من بابل، عزرا: (لِيُعْلَمِ الْمَلِكُ أَنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ صَعِدُوا مِنْ عِنْدِكَ إِلَيْنَا قَدْ أَتُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَبْنُونَ الْمَدِينَةَ الْعَاصِيَةَ الرَّدِيئَةَ وَقَدْ أَكْمَلُوا أَسْوَارَهَا وَرَمَّمُوا أُسُسَهَا)[3]، وفي سفر المكابيين الأول (❁فعزم يهوذا على الإيقاع بهم وحشد جميع الشعب لمحاصرتهم ❁فاجتمعوا معا وحاصروهم سنة مئة وخمسين ونصب عليهم القذافات والمجانيق ❁فخرج بعض منهم من الحصار فانضم إليهم نفر منافقون من إسرائيل)[4]. ما أشبه اليوم بالبارحة! إنها العقلية الصهيونية المشبعة بالحقد والكراهية ذاتها. وتبدو هنا سياسة الحصار والجدران والحواجز والأسوار والقاذفات استراتيجية مركزية داخل الفكر والعقل الصهيوني، حيث يعتبر التجويع والحصار والتمترس وراء الجدران والأسوار والإذلال للآخر ممارسات عقائدية ومشروعة تدخل في صلب تركيب وتكوين الجماعة اليهودية، فيوشع بن نون وسفره المدعى لا يجعل من التوحيد الهدف الأسمى، فكل روايته تدور حول (أسوار أريحا الهائلة)، مع أن الأبحاث الأثرية والتحاليل المخبرية لطبقات الأرض والتربة في منطقة مدينة أريحا أثبتت عدم وجود أي أثر لأسوار أو حريق للمدينة في تلك الحقبة، وأثبت العلماء والمؤرخون وعلماء الآثار أن المدن الكنعانية لم تكن ذات أسوار، بل كانت مدناً مفتوحة ذات تنظيم عمراني رائع وحضارة مدنية عظيمة وأصيلة. ويعبر القرآن الكريم عن ذلك في وصفٍ دقيق، وهو الشاهد المُنزَّل مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل على أفعالهم

١- جشم العربي: جاسم العربي.
٢- العهد القديم سفر نحميا 6: 1.
٣- العهد القديم سفر عزرا 4: 12.
٤- العهد القديم سفر المكابيين الأول 6: 19-21.

الماضية بقوله تعالى: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾[1].

تذكر الرواية الكتابية أن يوشع بن نون حاصر مدينة أريحا وحطم أسوارها: (❁...تَدُورُونَ دَائِرَةَ الْمَدِينَةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، وَالْكَهَنَةُ يَضْرِبُونَ بِالأَبْوَاقِ. ❁...عِنْدَ اسْتِمَاعِكُمْ صَوْتَ الْبُوقِ، أَنَّ جَمِيعَ الشَّعْبِ يَهْتِفُ هُتَافاً عَظِيماً، فَيَسْقُطُ سُورُ الْمَدِينَةِ فِي مَكَانِهِ... ... ... ❁وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْلٍ وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ)[2].

من الأمور التي تثير الدهشة والاستغراب الشديدين أن يأتي بعد عدة قرون تبريراً كهنوتياً مشابهاً للتبريرات التي استند إليها البابا أوربان الثاني في حروبه الفرنجية الصليبية المقدسة الموجهة إلى بلاد الشرق بمسيحييه ومسلميه، تحت شعار (الحرب المقدسة باسم يسوع المسيح)، والمسيح منه ومن هذه الحروب براء. والمستغرب أكثر من ذلك في أيامنا هذه أن يأتي التبرير ذاته داخل حاشية الكتاب المقدس بشروحه (العهد القديم) وبتفسيره الحديث في حاشية الشرح[3]، ما نصه التفسيري والتبريري (قواعد الحرب المقدسة وهو يخضع لأمر إلهي). ورد ذلك شرحاً لغزو أريحا وإبادة سكانها وحرقها بالنار. أي إلهٍ يُعبد هذا الكاهن وهذا المُفسِّر والمبرر؟! هل هو إله الناس الخالق العلي القدير؟ أم هو الإله الوثني السياسي المتواجد داخل العقلية الصهيونية وورثتها من الأحبار والكتبة؟!

يشير الدكتور إسرائيل فلنكشتاين[4] في كتابه (التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها) إلى موضوع أسوار أريحا: (كانت المدينة المثالية تتضمن قصراً ومجمع هيكل وبضعة صروح عامة أخرى، هي في الغالب مساكن للموظفين الكبار، وحانات، وأبنية إدارية أخرى، فقط لا غير. فلم تكن هناك أسوار للمدن، ولم تكن المدن الكنعانية الرائعة، التي تصفها قصص الغزو الإسرائيلي لكنعان في الكتاب المقدس محمية في الواقع بأي تحصينات دفاعية)[5].

أستشهد بما كتبه الدكتور فلنكشتاين حول عدم وجود أي أسوار لمدينة أريحا في محاولة للإضاءة على الحقيقة الجلية التي لا شك فيها، والتي تفيد أن الكثير من القصص الكتابية لم تكن أكثر من قصص مختلقة ومدسوسة في التوراة لا أساس

١- القرآن الكريم سورة الحشر الآية 14.
٢- العهد القديم سفر يشوع 6: 4-21.
٣- نسخة دار المشرق بيروت 1998 (الرهبانية اليسوعية)، ص (229).
٤- إسرائيل فلنكشتاين: رئيس قسم الآثار في جامعة تل أبيب.
٥- د. فلنكشتاين (التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها) ص 114.

لها من الصحة. وهي في الواقع محاولة لخلق تاريخ وماضٍ للقبيلة العبرية، وتأتي تعبيراً صادقاً عما يجول داخل العقلية والنفسية اليهودية الصهيونية. ويأتي الادّعاء أيضاً ليكشف عن الطبيعة العدوانية المغرقة والمفرطة في ثقافة الحروب ورب الجنود والعنف والإبادة الموجه نحو الآخر غير اليهودي، وقد تكرر ذكر ذلك مرات عديدة داخل رواية (الكتاب المقدس).

شكلت هذه الثقافة الاستعلائية مبدأ (حق البقاء للأقوى)، كما عبرت عنه حكاية سفر التكوين حول قصة (عيسو ويعقوب) وأبيهم إسحق الذي فبركت الرواية باسمه زوراً (وَبِسَيْفِكَ تَعِيشُ وَلأَخِيكَ تُسْتَعْبَدُ. وَلَكِنْ يَكُونُ حِينَمَا تَجْمَحُ أَنَّكَ تُكَسِّرُ نِيرَهُ عَنْ عُنُقِكَ)[1]. هذه العقيدة البدائية المتبناة سيواجهها تعبير ثوري ناجم عن قراءة سلوك وعقيدة اليهودية الصهيونية وممارساتها (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة). إذاً لا سلام في ظل عقيدة (لأَخِيكَ تُسْتَعْبَدُ). إما أن تقتلني أو أقتلك (إبادة الآخر) منطق إسرائيلي تتبناه دولة الاحتلال الصهيونية. وهو منطق تلمودي عنصري وتمييزي لا علاقة له بالمطلق بالتوحيد والإيمان والأوامر الإلهية أو (الحروب المقدسة). إنه ادّعاء شوفيني شاذ ولا يمكن أن يجعل من هذه الرواية كلمة الله المقدسة، ففي ذلك تجنٍّ على الإرادة الإلهية واستهانة بكلمتها المقدسة.

العقلية التكوينية الغريزية العدوانية تم توارثها جيلاً بعد جيل ضمن الرواية الكتابية من ادّعاء (إسراءيل القديمة) إلى تأسيس الغرب الاستعماري بالقوة (لإسرائيل الحديثة الحاضرة). ونقرأ في سفر الملوك الثاني: (❁...[كَلِّمْ عَبِيدَكَ بِالأَرَامِيِّ لأَنَّنَا نَفْهَمُهُ وَلاَ تُكَلِّمْنَا بِالْيَهُودِيِّ فِي مَسَامِعِ الشَّعْبِ الَّذِينَ عَلَى السُّورِ]. ❁فَقَالَ لَهُمْ رَبْشَاقَى: [هَلْ إِلَى سَيِّدِكَ وَإِلَيْكَ أَرْسَلَنِي سَيِّدِي لأَتَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلاَمِ؟ أَلَيْسَ إِلَى الرِّجَالِ الْجَالِسِينَ عَلَى السُّورِ لِيَأْكُلُوا عَذِرَتَهُمْ[2] وَيَشْرَبُوا بَوْلَهُمْ مَعَكُمْ؟])[3].

ومن حقبة ما سمي بالهيكل الثاني، سفر نحميا: (وَعِنْدَ تَدْشِينِ سُورِ أُورُشَلِيمَ طَلَبُوا اللاَّوِيِّينَ مِنْ جَمِيعِ أَمَاكِنِهِمْ لِيَأْتُوا بِهِمْ إِلَى أُورُشَلِيمَ لِكَيْ يُدَشِّنُوا بِفَرَحٍ وَبِحَمْدٍ وَغِنَاءٍ بِالصُّنُوجِ وَالرَّبَابِ وَالْعِيدَانِ)[4]. ومن بداية الخروج من

١- العهد القديم سفر التكوين 27: 40.

٢- (لِيَأْكُلُوا عَذِرَتَهُمْ): أي ليأكلوا برازهم ويشربوا بولهم؛ إشارة للحصار والجوع والعطش.

٣- العهد القديم سفر الملوك الثاني 18: 26-27.

٤- العهد القديم سفر نحميا 12: 27.

مصر: (وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَمَشُوا عَلَى الْيَابِسَةِ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ)[1]. ومن سفر الرؤيا العهد الجديد، الذي يتشابه كثيراً مع نمط وأسلوب سفر دانيال وثقافته البابلية الآشورية الفارسية، من حيث الوصف الأسطوري للوحوش والعروش وأوصاف الحيوانات التي كانت تعبد في تلك الثقافات ما قبل التوحيدية (النسر والثور والأسد والنمر والفرس والدب) ضمن الأشكال الغريبة الموصوفة، والتي اختلطت فيها الأسطورة باللاهوت والتاريخ وصفاً وتشبيهاً وتراثاً في تصور القدس وأسوارها: (❁...وَأَرَانِي الْمَدِينَةَ الْعَظِيمَةَ أُورُشَلِيمَ الْمُقَدَّسَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ❁لَهَا مَجْدُ اللهِ، وَلَمَعَانُهَا شِبْهُ أَكْرَمِ حَجَرٍ كَحَجَرِ يَشْبٍ بَلُّورِيٍّ. ❁وَكَانَ لَهَا سُورٌ عَظِيمٌ وَعَالٍ، وَكَانَ لَهَا اثْنَا عَشَرَ بَاباً، وَعَلَى الأَبْوَابِ اثْنَا عَشَرَ مَلاَكاً، وَأَسْمَاءٌ مَكْتُوبَةٌ هِيَ أَسْمَاءُ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الاِثْنَيْ عَشَرَ. ... ... ❁وَالَّذِي كَانَ يَتَكَلَّمُ مَعِي كَانَ مَعَهُ قَصَبَةٌ مِنْ ذَهَبٍ لِكَيْ يَقِيسَ الْمَدِينَةَ وَأَبْوَابَهَا وَسُورَهَا)[2].

إنه قليلٌ من كثيرٍ احتوته الأسطورة العبرية من أسوار وجدران وحصار وتجويع وعقوبات جماعية وحروب إبادة ودعوات للانعزال وعزل الآخر ونفيه. ويأتي في أيامنا هذه بناء جدار الفصل العنصري وإقامة الحواجز في الضفة الغربية والقدس في الأراضي الفلسطينية المحتلة، والحظر والإغلاق والحصار على قطاع غزة، وإغلاق المعابر، ليشكل عقوبات جماعية وحرب إبادة وجرائم حرب ضد الإنسانية اتبعتها اليوم دولة (إسرائيل التوراتية الغربية) بعمليات قصف جوي شامل وتدمير همجي وحشي للبنية التحتية وأسس الحياة والعيش والطبابة ومؤسسات التعليم والعبادة والإعلام وبيوت الحضانة ورعاية الطفولة لكسر صمود المقاومة الفلسطينية ودفعها للاستسلام والمفاوضات العبثية ضمن الشروط الإسرائيلية الأمريكية، في ظل تواطؤ عربي وغربي مكشوف، وتحت صمت دولي مريب ومدان ومستنكر ومشبوه الغايات.

في قراءة لما كتبه البعض من قادة وساسة وكتاب ومؤرخي الكيان الصهيوني من اليهود الغربيين (محافظين وعلمانيين)، ستتضح حقيقة الأزمة النفسية والفكرية والأيديولوجية التي يعيشها هذا الكيان العنصري المتداعي، والذي تحمل الأيديولوجية الصهيونية التي قام عليها أسباب انهياره وسقوطه

١- العهد القديم سفر خروج 14: 29.

٢- العهد الجديد رؤيا يوحنا اللاهوتي 21: 10-15.

الحتمي، حيث إنه سيتآكل من الداخل كنتيجة حتمية لعقم النظريات (التوراتية والتلمودية)، ولفكرة نظام (يهودية الدولة) التي قام عليها.

نقرأ في تصريحات السيد أبراهام بورغ إلى صحيفة هآرتس الصهيونية مؤلف كتاب (الانتصار على هتلر) بداية للعد التنازلي لسقوط نظرية (يهودية الدولة) أو دولة الماضي التوراتي. والسيد بورغ من أوائل المؤسسين والقادة، حيث كان من رؤساء الكنيست الإسرائيلي لدورات برلمانية عدة، ووزيراً سابقاً لوزارة الداخلية. أجريت المقابلة معه في 2007/6/8. وكانت هذه المقابلة بعد حرب تموز 2006 التي سجلت فيها المقاومة الإسلامية الوطنية اللبنانية انتصاراتها على المؤسسة العسكرية الصهيونية، وكانت أحد الأسباب الرئيسة في انهيار الجبهة الإسرائيلية الداخلية التي أدت إلى أزمة نفسية عميقة في المجتمع الإسرائيلي، وفجرت التناقضات الاجتماعية والعرقية الكامنة داخلها.

يقول أبراهام بورغ: (إن وصف إسرائيل بالدولة اليهودية هو مفتاح زوالها). ويقول أيضاً في كتابه الانتصار على هتلر: (قامت إسرائيل كملجأ آمن للشعب اليهودي. وهي اليوم المكان الأقل أمناً للجماعة اليهودية الذي لا يمكن العيش فيه. إن إسرائيل الشابة الثورية المتقدة تحولت إلى ناطق بلسان الأموات، فنمط حياتنا حربي تجاه الجميع، تجاه الأصدقاء والأعداء، تجاه الداخل والخارج. ويمكن القول ليس مجازياً، ليس استعارة، إنما بحزن وثقة: إن الإسرائيلي لا يفهم سوى القوة. إنها عبارة انطلقت كجزء من الغطرسة الإسرائيلية إزاء عجز العرب عن الانتصار علينا في ميدان المعركة، واستمرت كتسويغ لكثير جداً من الأفعال والنظريات التي لا يمكن تسويقها في عالم سوي. الفاشية هنا الآن، إسرائيل دولة بلطجة، مستقوية وإمبريالية فاقدة لروح الأصالة منطوية على نفسها)[1].

يعبر بورغ بواقعية وموضوعية عن الأزمة العسكرية والنفسية التي يعيشها المجتمع الإسرائيلي. كما يعبر عن حقيقة مؤسفة تشير إلى أن الغطرسة العسكرية الصهيونية إنما هي ناجمة عن عجز العرب عن تحقيق الانتصار عليها في ميدان المعركة. ويثبت بورغ أيضاً عقم النظرية الصهيونية القائمة على (يهودية الدولة)، أو تأسيس الدولة على أسس توراتية، فتمثل ذلك بقوله: (تحولت إلى دولة ناطقة بلسان الأموات)، متناسيةً الأحياء الذين يمثلون المستقبل من المواطنين أو الرازحين تحت الاحتلال الذين بإمكانهم تشكيل دولة علمانية مدنية يعيش فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون في وطن واحد.

١- أبراهام بورغ عن صحيفة هآرتس العبرية عدد 2007/6/8 (كتاب الانتصار على هتلر). عرض سعيد هلال الشريقي، أوراق ثقافية - صحيفة تشرين السورية 2007/6/11.

ومما جاء في صحيفة هآرتس الصهيونية أيضاً، لقاء مع مؤلف كتاب (متى وكيف اخترع الشعب اليهودي)، المؤرخ الإسرائيلي البروفيسور شلوموزاند من جامعة تل أبيب، والذي يجيب عن أسئلة الصحافي في صحيفة هآرتس العبرية أوفري إيلاني: (إذا كانت الأسطورة الصهيونية هي الشعب اليهودي الذي يعود إلى أرضه بعد الخروج، فتلك هي أسطورة البلد الذي قمنا بغزوه. وبرأيي، فإن بناء أسطورة حول المستقبل هي أفضل من بنائها حول الماضي، اليوم بالنسبة للأمريكيين، كما هو الحال بالنسبة للأوروبيين. إن ما ينصف ويؤكد عدالة وجود أمة هو المستقبل المفتوح، وما يعني تقدماً وازدهاراً للمجتمع». ويتابع الإجابة عن أسئلة أخرى، فيقول: «يجب أن يبدأ العمل وبشكل جاد ليتحول هذا المكان إلى جمهورية إسرائيل، حيث الأصل العرقي وكذلك المعتقد لن يكون في تناقض مع القانون، وإن أي شخص يطلع أو له المعرفة بشباب المجتمع العربي الإسرائيلي يستطيع أن يرى أنهم لا يوافقون على العيش بمجتمع في وطن لا يظهر ويؤكد وجودهم، ولو كنت فلسطينياً فسوف أكون ثائراً ضد دولة مثل هذه، ولكني أيضاً أثور ضدها)[1].

هذا التغير في التفكير بالنمط الذي يجب أن تكون عليه الدولة، وهذا الشعور المتنامي بعقم الادّعاء الصهيوني بدولة يهودية، إنما هو ناجم عن الشعور المتزايد بالعداء والكراهية لدولة إسرائيل العنصرية، وعدم قدرتها على البقاء والصمود طويلاً أمام عداء وعزلة عربية وإسلامية لن تستطيع مشاريع شيمون بيريز وجورج بوش المتصهين (الداعي إلى شرق أوسط جديد) من فك عزلتها وتثبيت وجودها في محيط تعددي ذي توجهات قومية، وحضارة مشرقية أصيلة عربية (إسلامية ومسيحية).

نصل إلى فهم وإدراك الأسباب الموضوعية التي أدت في الماضي إلى عدم انصهار واندماج تلك الجماعة اليهودية الغربية داخل مجتمعاتها المختلفة التي ترعرعت وعاشت فيها وحملت جنسياتها ولغاتها وعاداتها وتقاليدها من المواطنين (اليهود الغربيين)، والنابعة أصلاً ممّا دُوِّنَ تحريفاً داخل الرواية العبرية من دعوات للانغلاق والانعزال وتحريم الاندماج، مما يجعلنا نتفهم أيضاً دون أن نبرر الممارسات العدائية التي ارتكبت بحق اليهود الغربيين عبر القرون الوسطى لدفعهم للهجرة خارج أوطانهم ومجتمعاتهم الغربية التي ولدوا وتواجدوا فيها. وأصبح أيضاً واضحاً لدينا، وهذا مؤكد، أن نظرية (شعب الرب) العنصرية التمييزية ووصف الآخر غير اليهودي بـ (الغويم) أصحاب الدرجات الأدنى،

١- شلوموزاند مؤلف كتاب (متى وكيف اخترع الشعب اليهودي) ترجمة سليمان دباغ بقلم أوفري إيلاني 2008/3/12 هآرتس العبرية.

الذين خرجوا من الرحمة الإلهية، وتبرير سلبهم وخداعهم بمكرٍ وخبثٍ تبريراً كتابياً، واحتقار المذاهب والأديان الأخرى غير اليهودية الذي أوجدَ أسباباً تراكمية خلقت ردّات فعل الآخر عليها، لهذا اتجهت أوروبا العلمانية لإصدار القوانين والتشريعات المتعلقة، بما يسمى (معاداة السامية).

لم تطل ردات الفعل هذه الجالية العربية اليهودية المتواجدة في بلاد المشرق وفي الدولة العربية الإسلامية. ولم يشهد يهود الدول العربية والإسلامية والمشرقية ما شهده يهود الدول الغربية من (محاكم التفتيش الأوروبية وغرف الغاز النازية)، بل كان اليهود العرب من المساهمين في بناء تقدم وتطور المجتمعات داخل الدولة العربية في المشرق وفي بلاد الأندلس الأسبانية، وأي ردات فعل طارئة في العصر الحديث، إنما مردّها إلى ردود الفعل الغاضبة التي سببتها الدول الاستعمارية الأوروبية بتأسيسها لدولة يهودية غربية على حساب فلسطين العربية بيهودها ومسيحييها ومسلميها على أرض فلسطين وطرد شعبها منها بالقوة!

هذا التمسك الصهيوني - وللأسف الأمريكي أيضاً - بيهودية الدولة، وبقرار حق العودة لليهود الغربيين والشرقيين والأفارقة متناقض أساساً مع قانون وقرار حق العودة للفلسطينيين، والمقصود به إسرائيلياً عودة اليهود ممّا سمي بالشتات، خلافاً للعقل والمنطق وحقيقة التاريخ ومبادئ تشكيل الدول والشعوب. وهذا ما سأتطرق إليه في الفصل القادم.

الادّعاء بدولة ليهود العالم، والذي يجري تطبيقه على أرض الواقع على حساب الشعب الفلسطيني وأرضه بقوة الإرهاب والدعم الغربي اللامحدود من حصار وعقوبات وقمع واستيطان، وبناء لجدار الفصل العنصري، وتقطيع أوصال ممتلكات الفلسطينيين، والاعتقال الإداري، والممارسات اللا إنسانية بحق أكثر من أحد عشر ألف معتقل فلسطيني والتنكيل بهم، والسيطرة على الثروة المائية، وتهويد القدس ومصادرة أراضيها، وإقامة الحواجز العسكرية ما بين قراها ومدنها وتفتيت مقومات المجتمع الفلسطيني وأسس التواصل بين مدنه وقراه، وانتهاك سيادة وسلامة الدول المجاورة، واحتلال أراضيها وسرقة مياهها والعدوان على شعوبها واستباحة أجوائها ومياهها؛ هذا الإرهاب والعدوان وهذه الممارسات التي يرتكبها نظام عنصري استيطاني احتلالي يرفض السلام والعدل والتعايش، ويفرض شروط الاستسلام المذلة، ووقف أعمال المقاومة المشروعة، وتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية من خلال

محاولاته الهادفة للتطبيع مع العرب والانفتاح عليهم اقتصادياً وثقافياً، ووقف مقاطعتهم الاقتصادية مجاناً ودون تقديم أي تنازلات أو إعادة أي حقوق لأصحابها، والممارسات الصهيونية المستندة إلى تفوق عسكري وقوة طاغية إمبريالية توراتية، يجعل الحديث عن السلام (أكذوبة كبرى) في ظل نظام عنصري قائم على العقلية التلمودية وعلى انفصام في تكوينها وتأسيس أيديولوجيتها وشخصيتها. يقول أبراهام بورغ في هذا الصدد: (إن الحديث عن محو غزة عنوة يدل على أننا لم نستوعب الدرس. المجتمع الإسرائيلي مذعور. إننا معوقون نفسياً. إن إسرائيل تعاني من صدمة نفسية مستديمة. التشدد يسيطر على هويتنا. إنه مجتمع يعيش على سيفه... أليس جدار الفصل الذي نقيمه في الأراضي الفلسطينية يدل على انفصام الشخصية الذي نعانيه؟!)[1].

كانت الانتفاضة الفلسطينية الأولى تقاتل وتقاوم وتحتج بالعصي والمقاليع والحجارة، في وجه سلطة مدججة بالسلاح المتطور لدولة قمعية عنصرية وإرهابية. لم تستوعب تلك السلطة الباغية المحتلة الدروس والعبر المستقاة من هذه الانتفاضة، وبقيت أسيرة ادّعاء تفوقها وقوتها وسيادة إثنيتها على الأعراق الإنسانية الأخرى. وتحدى مجرم الحرب آرييل شارون مشاعر الفلسطينيين بتكسير عظام أطفالهم وتحدي مشاعرهم الدينية والفكرية بانتهاك حرمة مقدساتهم وازدراء مشاعرهم وتهديدهم والتطاول على حرمة المسجد الأقصى الشريف وتدنيسه ومحاولة هدمه والحفر تحت أساساته لإقامة الهيكل المزعوم وقيام الدولة التوراتية والتهديد بطرد السكان العرب مسلمين ومسيحيين إلى الأردن وما سمي (الوطن البديل). تجلت ردة الفعل الشعبية على هذه الممارسات الوحشية التلمودية باستخدام الأيديولوجيا الدينية الجهادية المضادة للأفعال التوراتية التلمودية لنظام إرهابي توراتي عنصري يعمل على تهويد القدس العربية وطرد سكانها منها، في ردة فعل طبيعي على فعل صهيوني احتلالي. فكانت انتفاضة الأقصى وكانت مقاومة العرب الفلسطينيين هذه المرة بأيديولوجيا جهادية إسلامية، هي في الواقع مقاومة شعبية قومية ووطنية مشرقية، تخلت دول الغرب وفي مقدمتها أمريكا عن ديمقراطيتها وعلمانيتها بدعمها ومساندتها لقيام الدولة اليهودية التوراتية، معبّرة بهذا الفعل عن أصوليتها وزيف دعواتها للعولمة والديمقراطية ومبادئ العدل والإنسانية، وهي تعلم جيداً أن توسيع الاستيطان ومصادرة الأراضي المحتلة الفلسطينية، وتقطيع

١- أبراهام بورغ (الانتصار على هتلر) هآرتس العبرية العدد الصادر بتاريخ 2007/6/8.

أوصال الضفة الغربية بإقامة جدار الفصل العنصري وتشجيع هجرة اليهود الغربيين إليها، لن يمكنها من قيام أي دولة فلسطينية. القوى الغربية المنحازة للدولة الصهيونية، وبمحاباتها وحمايتها لها، تحمل في باطنها الخداع والكذب، فيما أسمته بحل الدولتين والرباعية، وخارطة الطريق، والمفاوضات العبثية، ومؤتمر السلام، (مؤتمر أنا بوليس) مؤتمر النفاق والشقاق الدولي للقوى المستسلمة للإدارة الأمريكية.

دعت دول الغرب الديمقراطي إلى انتخابات فلسطينية تشريعية اعتقدت أن نتائجها ستكون مشابهة لنتائج الانتخابات الأفغانية والعراقية واللبنانية. وشهدت من خلال إشرافها على قيام انتخابات حرة في الأراضي المحتلة نزيهة وديمقراطية، حيث فازت حركة المقاومة الإسلامية حماس بأصوات الأغلبية. انقلب السحر على الساحر، فنتائج الانتخابات لا تخدم المصالح الإسرائيلية والأمريكية. تتخلى إسرائيل والدول الغربية وبشكل مكشوف وفاضح عن الحرية والديمقراطية التي تدّعيها حينما يتعلق الأمر بعنصريتها التوراتية، فتحرض وتتآمر على نتائج الانتخابات الشرعية الفلسطينية بالتعاون مع رموز فاسدة ومشبوهة داخل أجهزة السلطة الفلسطينية، ومع رموز أخرى عربية مستسلمة، وتصدر الأوامر الأمريكية إلى بعض رموز السلطة الفتحوية[1]، التي عاقبتها جماهيرها على فسادها وتفريطها بالحقوق الثابتة الفلسطينية، وبسبب تحالف وتعاون بعض رموزها مع العدو وأزلامه وخروجها عن الثوابت ومبادئ المقاومة الأصلية التي كانت حركة فتح (أبو عمار، وأبو إياد، وأبو جهاد) وغيرهم دائماً أول من مارسها ودعا إليها قبل تأسيس حركة المقاومة الإسلامية، وهي المقاومة التي حوصر واستشهد ياسر عرفات من أجلها، وقتل غيلة وغدراً على يد إسرائيل وعملائها!

تصدر الأوامر الأمريكية بالانقلاب على الشرعية واعتقال واغتيال رموزها في غزة والضفة بتنفيذ إسرائيلي ومباركة سلطوية (والمقصود هنا السلطة الفلسطينية التي تقودها حركة فتح حزب السلطة). وتمارس الرؤوس العفنة المستسلمة، ومنها العميلة التابعة للعدو مباشرةً من أصحاب المصالح المادية المرتبطة معه، مباشرة سياسة وضع العصي في الدواليب لإفشال الحكومة الشرعية، وتأليب الجماهير عليها، والعمل على عزلتها عربياً ودولياً، ومحاصرتها والدس عليها، والتحالف مع الدول المستسلمة والتنسيق معها، وتتكفل مصر (بقيادة مبارك) بدورها بإغلاق معبر رفح الحدودي، وتتكفل الدولة الصهيونية بفرض العقوبات والحصار على قطاع غزة الصامد وعزله، بينما تتكفل السلطة وزمرتها المستسلمة بتجريد المقاومة من سلاحها في الضفة

١- المقصود هنا بالسلطة الفتحوية تلك القيادات التي تدّعي تمثيلها لحركة فتح الثورية المقاومة، وتصادر وتصادر قراراها الوطني الحر عبر أجهزة السلطة الأمنية. هذه القيادة تصادر حتى منظمة التحرير الفلسطينية وتخضعها لمشيئة المفاوضين والمفرطين وأوامر الدول المعتدلة والمانحة.

الغربية، وتسليمها للعدو واعتقال رموزها، والتنسيق الأمني (برنامج دايتون) مع إسرائيل، حيث يقوم جواسيس الأجهزة بتزويد الجيش الإسرائيلي الصهيوني بأسماء المقاومين وأماكن تواجدهم ومراقبتهم. وبينما كانت هناك محاولات جادة لرأب الصدع وإعادة اللحمة الوطنية الفلسطينية، كانت قيادات السلطة تلتقي وتجتمع برموز الدولة العبرية، وتتبادل القبلات واللقاءات معها، لأن شهوتها للسلطة والتفاوض والتفريط والإملاءات الخارجية منعتها من القبول باللقاء والحوار مع أبناء قضيتها. إن الأصولية الإسلامية هي الفزاعة التي تختلقها أمريكا وأعوانها عذراً مقنعاً لضرب حركة المقاومة في كلٍّ من العراق ولبنان وفلسطين والصومال. وما صدور الأوامر الأمريكية لدول الاعتدال العربي بعدم الاستجابة لعقد مؤتمر عربي على مستوى القمة للعمل على فك الحصار على غزة ونصرة أهلها، إلا دليل آخر على تبعية تلك الدول والحكومات لأمريكا وإدارتها الصهيونية.

والآن في ظل صمت عربي ودولي مطبق متواطئ وجبان على ما يجري من إبادة جماعية في قطاع غزة، لا بد من وضع النقاط على الحروف والإشارة للحقيقة الغائبة والمغيبة التي يلتف عليها الكثير من الكتّاب والإعلاميين والساسة، والتي لا تخفى إلا على الحمقى والمرتشين الفاسدين في أنظمة الحكم العربية المتخاذلة.

بعد سقوط الدولة العثمانية وانهيار سيطرتها على بلاد المشرق العربي وجنوبه وغربه، عمدت القوى الاستعمارية التوراتية إلى إعادة تقسيم التركة العثمانية، بما يتوافق ومصالح هذه الدول المحتلة وأتباعها في المنطقة، لخلق كيان صهيوني يضمن لها مصالحها ونفوذها، كما يضمن تدفق الثروات والمواد الباطنية إليها، فعمدت إلى إعادة تقسيم التركة في رسم حدود جديدة سياسية لا نزال نشهدها حتى اليوم. اشترطت هذه الدول الاستعمارية على البعض من المشايخ والإمارات والأسر والقبائل شروطاً لتعزيز سلطتها وتحقيق مصالحها وضم أراضٍ وولايات جديدة إلى كياناتها العشائرية، ولاستمرار وجودها ومنافعها وملكيتها، ضمان بقاء واستمرار التمدد والحياة للكيان الصهيوني الذي اقتسم التركة معها، بحيث يصبح بقاؤها واستمرار كيانها وسيطرة هذه الأسر عليها مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً ببقاء هذا الكيان وأمنه ومصيره، وربط مصيره أيضاً بمصيرها واستمرارها. وأصبح بقاؤها وبقاء نفوذها وحكم أسرها وعشيرتها مرتبطاً مع هذا الكيان، أي وُضِعت إسرائيل وبعض هذه الكيانات الجديدة في قارب واحد يغرق فيه الجميع، فبقاء إسرائيل هو صمام أمان بقاء هذه الأنظمة المستحدثة على عروشها ونفوذها وأنظمتها ومنافعها!

في المقابل يضمن لها تربعها على عروشها وسلطاتها وضمان استمرار مصالحها بالجاه والسلطان والنفوذ والثروة. هذه الاتفاقيات غير المعلنة هي التي تدفع تلك النظم والأسر المتحجرة للحضور السياسي والسيطرة على مفاصل العمل

العربي والإسلامي المشترك من مؤتمرات للقمة للجامعة العربية والمؤتمرات الإسلامية، عاملة بحرص وإخلاص على إحباط وتبديد أي جهد عربي أو إسلامي فاعل يهدف إلى تحرير الأرض والإنسان، أو يدعم المقاومة والصمود والممانعة، أو الوحدة والديمقراطية، أو النهوض وبروز قوة عربية فاعلة وقادرة، كما حصل في التآمر على العراق لإحباط قوته، وكما حدث أيضاً في الوحدة المصرية السورية والعراقية. أمام هذه الحقيقة المرة، أقول إن أرض فلسطين التاريخية غير قابلة للتقسيم والقسمة. إن إقامة دولتين، كما يزعم الغرب وبعض العرب المعتدلة، سوف تجعل من هاتين الدولتين كيانين تابعين لسطوة وسياسة الدول المانحة. ويعمل هذا الحل على تكريس سياسة الاحتواء وتأخير المواجهة الحتمية القادمة، وإعطاء الكيان الصهيوني فرصة للتفوق العسكري والتطبيع والشرعية، ويحقق للأنظمة التابعة والمستسلمة شروط تخليها عن القضية المركزية للأمة.

إن تحقيق حق العودة وقيام الدولة دولة ديمقراطية مدنية منتخبة على أرض فلسطين التاريخية لمواطنيها من اليهود والمسيحيين والمسلمين الفلسطينيين على أساس من العدل والمساواة وسيادة القانون، تكون هذه الأسس وحدها نواة هذه الدولة التي سوف تحمل كل أسباب البقاء والسلام والتوافق والعدل. هذا السلام الذي لن يحتاج إلى أسلحة متطورة وجيوش لضمان استمراره؛ إنه السلام الذي لن يحتاج للقوة الطاغية لحمايته؛ إنه السلام الذي يحمي ويقوي نفسه بنفسه، ولن يحتاج أيضاً لمعاهدات واتفاقيات لضمان استمراره وأمنه. وسيكتشف الساعون إلى وهم سلام وحل الدولتين المزعوم والمفاوضات العبثية أن أرض فلسطين غير قابلة للقسمة (إن آخر الدواء هو الكي). وفي لقاء إعلامي واتصال لقناة الجزيرة مع أحد المسؤولين الإسرائيليين الصهاينة لمحاورته عن قرار الكيان الصهيوني بتوسيع الاستيطان حول القدس وتهويدها وبناء أكثر من سبعمئة مستوطنة جديدة في جبل أبو غنيم، لا سيما بعد انعقاد مؤتمر أنابوليس وبدء المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية وادّعاء الرئيس الأمريكي جورج بوش القائل بـ (حل الدولتين) وإقامة السلام الشامل في الشرق الأوسط، صرّح هذا المسؤول الصهيوني تصريحاً عبّر عن عقم المفاوضات العبثية، وكشف ما تكنّه العقلية والنفسية اليهودية الغربية الصهيونية من عنصرية ومكر وخداع وإصرار على احتلال الأرض والتوسع وإقامة الدولة اليهودية على كامل أرض فلسطين التاريخية. فعلى الهواء مباشرةً، وبوقاحة متناهية لا تخفي مخادعة الأصدقاء والأعداء معاً حول النوايا التوسعية وما تبيته السياسة الإسرائيلية، أجاب المسؤول الإسرائيلي محدثه في برنامج حصاد اليوم، وبعصبية معبرة عن دفائن النفسية الصهيونية، عن سؤال الدكتور جمال الريان: (تتحدث عن عدم شرعية المستوطنات؟ نحن هنا بالقدس منذ ثلاثة آلاف سنة. ما شأنكم أنتم بالقدس؟ كنتم تعبدون الأصنام وتئدون البنات عندما كنا هنا لتقول الآن أراضٍ محتلة. هذه

الأراضي ليست محتلة. الأردن كانت دولة محتلة، ما شأنكم أنتم في قطر وفي قناة الجزيرة؟!)[1]. عبّر وبصراحة موقف المسؤول الإسرائيلي الصهيوني عن الإملاءات الأمريكية الموجهة إلى دول الاعتدال العربي: (ما شأنكم أنتم بالقدس وفلسطين والمسجد الأقصى؟!).

في مقابلة تلفازية مباشرة عصر يوم 2008/12/31 مع كبير المناضلين الفلسطينيين المناضل بهجت أبوغربية على قناة القدس الفضائية (مباشر) عرض على الهواء مباشرة وثيقة منشورة على الإنترنت من موقع صحيفة يدعوت أحرنوت الصهيونية، وبلسان صحافييها الذين حضروا الاجتماع تاريخها 2008/9/9 ما مفاده أنه حصل اجتماع عسكري في بناية شمال رام الله بين مجموعة من كبار الضباط الإسرائيليين ومجموعة مؤلفة من أربعة ضباط في أجهزة السلطة الفلسطينية الأمنية برئاسة كبيرهم المدعو أبو الفتح، لوضع خطة عسكرية مشتركة للقضاء على المقاومة الفلسطينية الإسلامية حماس، حيث خاطب الضابط الفلسطيني أبو الفتح
الضباط الإسرائيليين بقوله: نحن وأنتم نواجه عدواً مشتركاً هو حماس، وعليكم وضع خطة لنقوم بتنفيذها قبل نهاية هذا العام 2008.

أتمنى أن يكون هذا الخبر مدسوساً من الصحيفة الصهيونية أو يدخل في إطار محاولات توسيع شقة الخلاف الفلسطيني الفلسطيني، التي يعمل عليها العدو جاهداً بهدف تصفية المقاومة، وبالتالي تصفية القضية، عبر مفاوضات ومماطلات عبثية ثبت عقمها وفشلها، وضمن خطة منهجية مدروسة جيداً.

وأثناء استعراضي لما ورد من فقرات سياسية وتحليل سياسي ضمن فصول هذا الكتاب حاولت توخي الحيادية والموضوعية ككاتب وباحث، وإعطاء القارئ فرصته للتقويم والاستنتاج والحكم على نتائج الأحداث الأخيرة، لا سيما الموقف الذي سمي تضليلاً (الخلاف الفلسطيني الفلسطيني).

واليوم وبعد كتابتي للخاتمة، طرأت على الساحة السياسية أحداث مؤلمة ومؤسفة لكل فلسطيني وعربي، حيث قام رأس سلطة أوسلو بإحباط مشروع نقل تقرير غولدستون قاضي لجنة حقوق الإنسان الأممية فيما يخص إدانة دولة العدو وجرائمها بحق الإنسانية وجرائم الحرب المرتكبة بحق شعبنا في قطاع غزة الذي لا يزال محاصراً ويتعرض لعدوانٍ شبه يومي، وذلك من خلال طلبه تأجيل تحويل هذا الملف للتصويت عليه، متذرعاً بالضغط الدولي والعربي (إنقاذاً لأمريكا أوباما)، ومتذرعاً أيضاً بعدم التأثير في أجواء السلام والمفاوضات دون الرجوع إلى المؤسسات الفلسطينية صاحبة القرار، وفي ظل استمرار التهويد

١- قناة الجزيرة الفضائية - حصاد اليوم - د. جمال الريان الأحد 2008/6/1 مباشرةً على الهواء مساءً.

للقدس واستمرار الاستيطان. إنها ذَلة وطنية كبرى ترتكب بحق الضحايا والشعب الفلسطيني ومقاومته وقضيته من رئيس سلطة يدّعي أنه يمثل هذا الشعب!

صرح عباس أنه لن يجتمع أو يحضر أي مفاوضات ما لم يتوقف الاستيطان، لكنه عاد وخضع للضغط الصهيوأمريكي ليحضر اجتماع نيويورك ويجتمع مع نتنياهو، ليصرح نتنياهو في الأمم المتحدة بعدم قبوله ورفضه لقرار اللجنة الأممية لحقوق الإنسان، فينصاع له عباس ليطلب وقف تحويل القرار للتصويت عليه. من يمثل الرئيس عباس إذاً؟ الفلسطينيين والنظام الرسمي العربي أم أوباما ونتنياهو؟ أنا، كعربي وفلسطيني لاجئ صاحب قضية، لم أنتخب أحداً ليمثلني في كل الانتخابات ومؤسسات السلطة الفلسطينية التابعة للجنرال الأمريكي (دايتون). وأقول بصراحة لكل فلسطيني وعربي أن السلطة الفلسطينية وسلطة أوسلو لا تمثلني ولا تمثل الشعب الفلسطيني. وهي سلطة غير شرعية وغير مؤهلة لتفاوض نيابة عن الشعب الفلسطيني. ومن يراهن عليها فهو يراهن على حصان أعرج خاسر.

فلسطين قبل 1948 فلسطين الغربية وغزة 1967 الجدار 2005

إن زيارتي للأرض المقدسة تذكرني كثيراً بعودة البانتوستان وجدار الفصل في نظام الأبارتيد في جنوب أفريقيا، كما لو أن التاريخ يكرر ذاته. ورغم ذلك فسيحلّ السلام في الأرض المقدسة كما حلّ في أفريقيا. "القس ديز موند توتو، الحائز على جائزة نوبل للسلام".